قبس من اللغة العربية وإعرابها

د. أبو إدريس عبد الرحمن محمد

كلية اللغة العربية – جامعة القرآن الكريم – أم درمان

قال تعالى : (**إنّا جعلناه قرءاناً عربياً لعلكم تعقلون**)

الحمد لله الذي اختار العربية لتكون لغة كلامه الأزلي، الذي هو خطابه تعالى لعباده جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها .. وهذا الاختيار – والله أعلم حيث يجعل رسالته – أو هذا الجعل للرسالة لا يقتصر على اختيار الإنسان، ولا يصدق فقط على اصطفاء الرسول (ﷺ) من سائر البشر وهو المقصد الأول في الآية – وإنما يصدق كذلك على أرض النبوة، وقوم النبوة الأوائل . وزمان النبوة ولغة النبوة، وما إلى ذلك من آفاق و أبعاد أخري .

ويكفي ذلك العربية تشريفاً كما يكفيها دليلاً على قدرتها وإمكاناتها، واستيعابها لأبعاد الزمان (الماضي ، والحاضر ، والمستقبل) والمكان (الجغرافيا) ومصداق هذا قوله تعالى :(**وكذلك أوحينا إليك قرءاناً عربياً لتنذر أم القري ومن حولها** ...) وما يكون من ذلك من تطور البشرية ونمو فكرها .

فإذا حق لنا أن نقول : بأن القرآن الكريم جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ومصداق هذا القول قوله تعالى : (**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه**) فإن لغة القرآن – العربية – تكتسب بذلك خصائص

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

الهيمنة نفسها بالنسبة لسائر اللغات، وأوعية التفكير ، ووسائل التعبـــير ، والتغيـــير ، والتواصل ، قال تعالى: (**وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين**) وقوله تعالى: (**قرءاناً عربياً غير ذي عوج**) الصلاة والسلام على إمام البيان الذي ابتعثه الله تعالى في الذروة من قومـــه فصاحـــة ، وبلاغة ، وبياناً فآتاه الله جوامع الكلم حيث قال (ﷺ): (أوتيت جوامـــع الكلـــم) وكانت معجزته التي وسعتها اللغة العربية ، وكانت أداتها بيانية بالدرجة الأولي ، وكان عليه الصلاة والسلام محلاً للقول الثقيل : (**إنَّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**) .

كما كان المبين عن ربه ما نزل إليه ، قال تعالى: (**وأنزلنا إليك الذكر لتبـــين للناس ما نزل إليهم**) وعلى آله وصحبه الذين هم الروافد والطرق لهذا المـــوروث إلى يوم القيامة .

وبعد

فهذا بحث يتناول خصائص ومميزات العربية بصفة عامة، وخصائص ومميـــزات إعرابها بصفة خاصة. وللوصول لهذه الخصائص والمميزات لا بد من عرض موجز يلقي الضوء على الأطوار التي مرت بها اللغة بعد نزول القرآن بها وانتشار الإسلام .

ففي طورها الأول في هذا المضمار : أن الناطقين بها كانوا أميين- قال تعـــالى: (**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتـلب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**) - لا يقـــرءون ولا يكتبـــون فكـــان مرجعهم في تلقي الإسلام والقرآن هو الرسول (ﷺ) الذي لا ينطق عن الهـــوى (**إن هو إلا وحي يوحى**)..

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

فكان (ﷺ) هو مرجعهم فيما يأخذون وما يتركون قال تعالى: (**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**) وقال تعالى:(**فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون**). فكانت الأمية في حقه صلوات الله وسلامه عليه شرف لا يدانيه شرف فقد علّمه وأدّبه ربه فأحسن تأديبه ، أما وصف الأمية في غيره فذم لذا جاء (ﷺ) لمحو الأمية بكل مستلزماتها ومقتضياتها فأول ما أوحي إليه الأمر بالقراءة التي تعني ما قلنا ، قال تعالى:(**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم**).

وفي هذا الشأن يقول ابن خلدون من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم عجم .. وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي ويعزو ابن خلدون السبب في ذلك إلى أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة.

وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه. والعرب يومئذ لم يعرفوا أمور التعليم والتأليف والتدوين ولا دُفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة. وجري الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين (وكان المختصون بحمل ذلك ونقله): يسمون القرّاء أي الذين يقرأون الكتاب وليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عرباً فقيل لحملة القرآن يومئذ قرّاءُ إشارة إلى هذا فهم قرّاء لكتاب الله والسنة المأثورة من الرسول (ﷺ) لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارده تفسير له وشرح قال (ﷺ): (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتي) . فلما كثرت

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

الفتوحات واختلط العرب بالعجم وفسد اللسان فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس ، واحتاجت إلى علوم أخري وهي الوسائل لها في معرفة قوانين العربية وغيرها فصارت هذه العلوم كلّها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع. وأن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها، والحضر في ذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده، والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما تربوا في اللسان العربي ومخالطة العرب فاكتسبوا اللسان العربي و صيروه قوانين وفناً لمن بعدهم وهكذا لم يقم بهذه الصناعة وتدوينها في النحو وغيره من علوم التفسير والحديث وأصول الفقه فأكثر الحفظة لهذه العلوم هم عجم أو مُستعجِمُون باللغة والمربي و لم يقم بحفظ العلم وتدوينه الأعاجم إلا وظهر مصداق قوله (ﷺ) : (لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس).

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها من البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة وحمايتها وسياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ وما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجّر إليها ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين. ففي علم اللسان العربي جعلوا أركانه أربعة هي: اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية لأهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة. وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلابد من معرفة العلوم المتعلقة

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

بهذا اللسان لمن أراد علم الشرعية وتتفاوت في التأكيد والأهمية بتفـــاوت مراتبـــها في التوفية بمقصود الكلام حسبما يتبين في الكلام عليها فناً فناً، وتحصل من ذلك أن الأهـــم المقدم هو النحو إذ به تتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتـــدأ من الخبر ولولاه لجهل أصل الإفادة وكان من حق علم اللغة التقدم. لـــــولا أن أكـــثر الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على السناد والمسند إليـــه فانه تَغيْر بالجملة و لم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم مـــن اللغـــة إذ في جهلـــه الإخلال بالتفاهم وليست كذلك اللغة.

واللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحســـب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الخاصة بالعرب من أحسن الملكات وأوضحها إبانة عـــن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني كالمجرور. أعني المضاف ومثـــل الحروف التي تُفْضي بالأفعال إلى الذوات من غير تَكلُّف ألفاظ أخري. وليس يوجـــد ذلك إلاّ في لغة العرب. وأما غيرها من اللغات فكل معنيّ أو حال لا بد مـــن ألفـــاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم في مخاطباتهم أطول مما تقدره بكلام العرب وهذا هو معني قوله (ﷺ): (أوتيت جوامع الكلم) فاختصر له الكـــلام اختصـــاراً فصـــار للحروف والحركات والأوضاع في العربية اعتبار في الدلالة على المقصود غير متكلفـين فيه لصناعة يستفيدون منها، إنما هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كمـــا تأخذ صبياننا إلى هذا العهد كلامنا فلما كثرت الفتوحات وانتشر الإســـلام وفـــارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم تغيرت تلـــك الملكة بما القي إليها السمع من المخلفات التي للمستعربين والســـمع أصـــل الملكـــات اللسانية ففسدت بذلك لجنوحها إليه باعتياد السمع فشعروا بذلك وخشي أهل العلـــم

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

منهم أن تفسد تلك الملكة نهائيا ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع.ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك. وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو.

وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي، ويقال ذلك بإشارة من أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة. ثم كتب فيها الناس من بعده إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد، وكان الناس أحوج إليها لذهاب تلك الملكة من العرب فهذب الصناعة وكمل أبوابها وأخذها عنه سيبويه فكمل تعاريفها واستكثر من أدلتها وشواهدها ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماما لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع أبو علي الفارسي وأبو القاسم الزجاج كتبا مختصرة للمتعلمين يحذون فيها حذو الإمام في كتابه ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصدرين القديمين للعرب، وكثرت الأدلة والحجج بينهم وتباينت الطرق في التعليم ، وكثر الاختلاف في كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين. وجاء المتأخرون بمذاهبهم في اختصار فاختصروا كثيرا من ذلك مع استيعابهم لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله واقتصارهم على المبادئ للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له.

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

وربما نظموا ذلك نظماً مثل ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الأرجوزة الألفية، وبالجملة فالتآليف في هذا الفن أكثر من أن تحصي أو يحلط بها و طرق التعليم فيها مختلفة، فطريقة المتقدمين مغائرة لطريقة المتأخرين ، و الكوفيون والبصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرقهم كذلك . وكان خاتمة المحققين في ذلك: جمال الدين بن هشام حيث أتي بكتابه المغني في الإعراب فقد استوفي فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرها . فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها، وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه فأكثر في مؤلفاته الاستدلال بالقرآن لا سيما في كتابيه: قطر الندي وبل الصدى وشذور الذهب فكأنه بنهجه هذا يؤصّل القواعد النحوية تأصيلاً. وبهذا فقد صدق فيه قول ابن خلدون: (مازلنا ونحن بالمغرب نسمع انه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له (ابن هشام أنحي من سيبويه) والله يزيد في الخلق ما يشاء. (وفوق كل ذي علم عليم). ولأهمية علم اللغة وما بعده من أركان اللسان لا بد من الحديث عنها حتى تكتمل هيئة الإيجاز غير المخل في هذا البحث .

فنقول علم اللغة هو بيان الموضوعات اللغوية. وذلك لأنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلنا ، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخاطبتهم حتى أدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه عندهم ، ميلاً مع هُجْنَةِ المستعربين في اصطلاحاتهم المخالطة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين خشية الدروس، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

والحديث. فشمّر كثير من أئمة اللسان لذلك وكتبوا فيه الدواوين ، وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألّف فيها: كتاب (العين) فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي ، وتأتّى له حصر ذلك بوجوه عديدة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع الأعداد على التوالي من واحد إلى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم بواحد لأن الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحداً فتكون كلها أعداداً على التوالي، العدد من واحد إلى سبعة وعشرين فتجمع كما هي بالعمل المعروف عند أهل الحساب ، ثم تُضاعف لأجل قلب الثنائي لأن التقديم والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات فيما يجمع من واحد إلى ستة وعشرين لأن كل ثنائية يزيد عليها حرف فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون بعد الثنائية فتجمع من واحد إلى ستة و عشرين على توالي العدد، ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في ستة جمل مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبها من حروف المعجم، وكذلك في الرباعي والخماسي فانحصرت له التراكيب بهذا الوجه. ورتب أبوابه على حروف المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب المخارج فبدأ بحروف الحلق ثم بعده من حروف الحنك ثم الأضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة اخر وهي الحروف الهوائية. وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصر منها فلذلك سُمي كتابه (بالعين) لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ، ثم بين المهمل منها من المستعمل ،

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

وكان المهمل في الرباعي والخماسي أكثر لِثقلِه ولحق به الثنائي لقلة دورانه وكان الاستعمال في الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر لدورانه ، وضمَّن الخليل ذلك كله في كتاب (العين) واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه. وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد بالأندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل ، ولخصه للحفظ أحسن تلخيص.

وألّف الجوهري من المشارقة: كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعَل الْبدَاءة منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل.

ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيدة من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد: كتاب المحكم على ذلك المنحي من الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب (العين)، وزاد فيه التعرّض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها فجاء من أحسن الدواوين. ولخصه: محمد بن أبي الحسن صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصحاح في اعتبار أواخر الكلم وبناء التراجم عليها فكانا توأميْ رحم وسليلي أبوةٍ .

هذه أصول كتب اللغة فيما علمناه. وهنالك مختصرات أخري مختصة بصنف من الكلم، ومستوعبة لبعض الأبواب أو كلها ، إلاَّ أن وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جَليّ من قبل التراكيب كما يشاهد فيها.

ومن الكتب الموضوعة أيضاً في اللغة كتاب الزمخشري في المجاز، بيّن فيه كل ما تجوزت به العرب من الألفاظ، وفيما تجوزت به من المدلولات، وهو كتاب عظيم الإفادة. ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الأمُور الخاصة ألفاظاً أخُري خاصة بها فوَقْ ذلك عندنا بيّن الوضع والاستعمال، واحتاج إلى فقه في

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

اللغة عزيز المأخذ كما وضع الأبيض بالوضع العام لكل ما فيه من بياض، ثم اختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، ومن الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملح حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحناً وخروجاً عن لسان العرب. واختص بالتأليف في هذا المنحي: الثعالبي وأفرده في كتاب له أسماه : (فقه اللغة) وهو من أوكد ما يأخذ به اللغوي نفسه من أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه، فليس معرفة الوضع الأول بكافٍ في الترتيب حتى يشهد له استعمال العرب لذلك، وأكثر ما يحتاج إلى ذلك الأديبُ في فنْي نظمه ونثره وحذرا من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو أشد من اللحن في الإعراب، وأفحش.

وكذلك ألّف بعض المتأخرين في الألفاظ المشتركة وتكفّل بحصرها ، وإن لم تبلغ إلى النهاية في ذلك فهو مستوعب للأكثر .

وأمّا المختصرات الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلاً لحفظها على الطالب فكثيرة مثل الألفاظ : لابن السكيت والفصيح لثعلب وغيرهما ، وبعضهما أقلُّ لغة من بعضها لاختلاف نظرهم في الأهم على الطالب للحفظ .

ومن الدعائم والأركان المكونة للغة : علم البيان وهو علم حادث في الملة الإسلامية بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ ، وما تفيده من المعاني، وذلك أن الأُمور التي يَقْصِد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي : إمّا تصور مفردات تُسْنَد ويُسْنَد إليها ويُفضي بعضها إلى بعض . والدالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف ، وإما تميز المسندات من المسند إليها ، والأزمنة ويدل عليها بتغيّر الحركات من الإعراب وأبنية الكلمات ، وهذه كلها هي صناعة النحو ، ويبقي من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة على أحوال المخاطبين أو

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل ، وهو محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمـــام الإفـــادة ، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه ، وإذا لم يشتمل على شيء منـــها فليس من جنس كلام العرب فإنّ كلامهم واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص بـــه ، بعد كمال الإعراب، والإبانة ألا ترى أن قولهم : زيد جاءني مغائر لقولهم : جاءني زيـد من قبل فإن المتقدم منها هو الأهم عند المتكلم ، فمن قال : جاءني زيد أفاد أنّ اهتمامـه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه ، ومن قال زيد جاءني أفاد أنّ اهتمامه بالشخص قبـــل المجيء المسند ، وكذلك التعْبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام أو مبهم أو معرفـــة ، وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم : زيد قائم ، وإنّ زيداً قائم ، وإنّ زيداً لقـــائم متغايرة كلها في الدلالة وإن استوت من طريق الإعراب فإنّ الأول العاري عن التـــأكيد إنما يفيد الشخص الخالي الذهن ، والثاني المؤكد بأن يفيد المتردد والمتطلـــع ، والثـــالث المؤكد بمؤكدين يفيد المنكر فهي مختلفة .

وكذلك تقول : جاءني الرجل ، وإذا أردت تعيينه ورفع الاحتمـــال تقـــول : جاءني الرجل عينه أو نفسه ، وإذا أردت تعظيمه : نكّرته فتقول : جاءني رجـــلٌ ، أي عظيم لا يعادله أحد . وقد يراد بالتنكير التحقير وهذا يفهم من المقـــام ومـــن ســـياق الكلام . ثم الجملة الاسنادية قد تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه ، ويعبَّر عنـــها أيضاً بأنها ما تحتمل الصدق والكذب . والجمل الإنشائية وهي التي لا خـــــارج لهـــا . ويعبَّر عنها أيضاً بأنها ما لا تحتمل الصدق والكذب ، كالطلب وأنواعه .

ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين إذا كان للثانية محـــل مـــن الإعـــراب فيشترك بذلك منزلة التابع المفرد نعتاً وتوكيداً وبدلاً بلا عطف أو يتعين العطـــف إذا لم يكن للثانية محل من الإعراب، ثم يقتضي المحل الإطناب والإيجاز فيورد الكلام عليـهما ثم قد يدل باللفظ و لا يراد منطوقه ، ويراد لازمه إن كان مفرداً كما نقول : زيد أســـد

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

فلا نريد حقيقة السد المنطوقة وإنما نريد شجاعته اللازمة ، ونسندها إلى زيد وتسمى هذه استعارة ، وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول : زيد كثير الرماد وتريد ما لزم ذلك عنه من الجود وقري الضيف لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما وهي دالة عليهما . وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد الركب ، وإنما هي هيئات ، وأحوال الواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيئات في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف : الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة . والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي الاستعارة والكناية ويسمى علم البيان ، وألحقوا بهما صنف آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك يسمى عندهم : علم البديع ، وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو الصنف الثاني لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى .

وكتب فيها : جعفر بن يحي والجاحظ وقدامة وأمثالهم كتابات غير وافية فيها ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا إلى أن مخض السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه وألف كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذه المتأخرون من كتابه ولخصوا منه أمهات الكتب المتداولة إلى هذا العهد .

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

وأعلم أن ثمرة علم البيان إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجـــازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال : منطوقة ومفهومة وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبـــها . وهـــذا هـــو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما يدرك بعض الشيء منه من كـــان لـــه ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصوله ملكته فيدرك من إعجازه عل قدر ذوقه فلـــهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلّغه (ﷺ) أعلى مقاماً في ذلك لأنهم فرســـان الكلام وجهابذته ، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحّه .

وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غُفْل عنـــه إلى أن ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفـــن بما يبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقـــائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة. ولأجل هذا يتحاشاه كثير من أهـــل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة .

ورابع دعائم العربية علم الأدب الذي لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضـــه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فن المنظوم والمنثـــور على أساليب العرب ومناهجهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل بـــه الكلمة من شعر عالي الطبقة ، وسجع متساو في الإجادة ،ومسائل من اللغـــة والنحـــو مبثوثةُ أثناء ذلك متفرقة يَسْتقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكـــر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة، والمقصود بذلك كله ألاّ يخفي على الناظر فيه شيء من كـــلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه. لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعـــد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه.

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

وأصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي : أدب الكاتب لابـــن قتيبـــة وكتـــاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها ، وكتب المحدثين في ذلك كثيرة . وكـان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن كما هو تابع للشعر إذ أن الغناء إنمـــا هـــو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم بـــه حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه . فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمـــروءة عندهم وقد ألّف القاضي أبو الفرج الأصبهاني كتابه في الأغاني جمع فيه أشعار العـــرب وأخبارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتاً التي اختارهـا المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتمّ استيعاب وأوفاه، ولعمري أنه ديـــوان العـــرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتـــاريخ والغنـــاء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو إليـــها الأديب ويقف عندها وأنّى له بها .

نخلص مما ذكرنا إلى أن اللغات ملكات لذا كان تعلمها ممكنـــاً شـــأن ســـائر الملكات ، ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة عليه أن يعرف قوانين هذه الملكة ثم يعـوّد نفسه حفظ كلام أصحاب هذه الملكة القديم الجاري علـــى أســـاليبهم مـــن القـــرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب .

ولّما كانت قريش موطنها أبعد من بلاد العجم من جميع الجهات كانت لغتـــها أفصـــح اللغات العربية وأصرحها ، ولا غرو في ذلك لأنها اللغة التي اختارها الله تعالى لتكـــون لغة كلامه الأزلي الذي (**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيـــم حميد**).

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

وهي اللغة التي خلدها الله تعالى أزلاً بتعلق علمه بها أزلاً لأنها لغة القرآن ، وخلدها أبداً بنزول القرآن بها فاكتسبت الخلود الأبدي فأضحت لغة الدنيا والآخرة التي هي الحيوان ، قال تعالى : (**وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**) فهي لغة أهل الجنة في الجنة ، وهي التي أوجب الله تعالى تعلمها لأنها الأداة لكتابه الكريم ، والأداة لسنة نبيه الرءوف الرحيم . وبهذين الأمرين يتحتم فهمها من قبيل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . قال تعالى : (**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**) ولما كان قوم الرسول (ﷺ) المرسل إليهم : الثقلين تعلق الواجب بتعلمها لكل من تقله الكرة الأرضية ، قال تعالى : (**وكذلك أوحينا إليك قرءاناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها**). ولما كانت أم القرى هي مركز الأرض تعلق الوجوب بكل من على ظهرها ، تعلق تكليف . وتعلقت رسالته بغير هذين الثقلين تعلق تشريف فهو المرسل للمخلوقين جميعاً ، قال تعالى : (**تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**).

ومما يحتم تعلمها أنها لغة الإنسانية جمعاء التي اختارها الله تعالى لخلافة الأرض وعمارتها ، قال الله تعالى : (**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**). وقال الله تعالى : (**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**).

وهي لغة من خلق الله تعالى لهم العالمين العلوي والسفلي ، قال الله تعالى : (**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً**) وقال تعالى : (**وسخَّر لكم ما في السموات و ما في الأرض جميعاً منه إنَّ في ذلك لآيات لقومٍ يتفكرون**).

ومن هذه الخلافة للإنسان والخلق والتسخير له يتبين أن الوجود يتمثل في أمور ثلاثة هي : الإنسان الذي هو مَعْنِيٌ بالخلق وبالتسخير له . والكون العلوي والسفلي وهو اللوح الصامت ، والقرآن الكريم الموجه والهادي لمن استخلفهم الله تعالى في

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

الأرض وسخر لهم الكائنات ، ولا يتأتى لهم الإمكان من الانتفاع مما سخر لهم إلا بالأمر الثالث وهو اللوح الناطق، وهو القرآن الذي يكشف ما وراء الطبيعة ويبين لهم الكون الصامت الذي هو لغز لكي يستثمروه وينتفعوا به ولا سبيل للانتفاع إلا بمعرفة اللغة التي نزل بها القرآن، فهي الأداة لمعرفته وبهذا الاختيار للقرآن ولغته يتعين على الإنسانية جمعاء معرفة اللغة العربية لكي تتمكن من أداء رسالتها فيما خلقت له وما خلق لها . وبهذا الفهم الصحيح المطابق للواقع تكون اللغة العربية هي لغة الإنسانية جمعاء وليست لغة العرب فحسب ، والقرآن ليس قرآن العرب فحسب والرسول (ﷺ) ليس رسول العرب فحسب بل رسول للعالمين جميعا ، قال الله تعالى : (**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**) وقال جل شأنه : (**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون**). وبذكر هذه الحقائق الدامغة المخرسة والمسكتة يتضح أن الحال والمآل للغة العربية بعد أن كان الماضي لها حيث وجدت وأثبتت وجودها في بيئة تئد فلذات أكبادها خوفا من الفقر قال تعالى : (**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا**) فقد قيض الله تعالى لها الحفظ في هذه البيئة التي تفقد جميع مقومات الحفظ بأن ألهم الناطقين بها تربية أبنائهم في نشأتهم الأولى في البادية حفظا لهم من الاختلاط الذي يؤدي إلى فساد ملكتهم اللغوية . وهذا ما سار به على صاحب العناية الإلهية حيث أرضعته حليمة السعدية رضي الله عنها في بادية بني سعد لنفس الغرض الذي انتهجته بيئته القرشية .

وكما أخبر تعالى بخلودها وأبديتها ــ بعد أن بينا أزليتها- حيث قال جل شأنه : (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**) فيلزم من حفظ القرآن حفظ لغته التي نزل بها، وهذا يعني أن الحق عز وجل سيهيئ للغة من يذود عنها إلى يوم القيامة على الرغم

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

من الجهود التي بذلت من اليهود والمستشرقين عامة لحصارها وعزلها ، والجهود التي ستبذل ممن ذكروا وممن رضعوا ثديهم وتأثروا بهم حتى وصل بهم التأثير إلى أن وصفوا اللغة بالصعوبة والتقعر وأنها لا تواكب العلم والحضارة بل وصل بهم تأثرهم وذواب شخصيتهم إلى الاقتراح بأن تبدل حروفها بحروف لاتينية أو بما أصلها لاتيني ، انظر إلى فعل اليهود والمستشرقين في اللغة العربية وفي الناطقين بها . علما بأن الاستشراق لم يلجأ إليه إلا بعد أن أحسوا أن اللغة العربية كعصا موسى عليه السلام تتلقف كل ما تحتك به من اللغات والحضارات فتصهرها وتذوبها فيها ، فابتكروا للغاتهم ما يكسبها البقاء ويحميها من هيمنة اللغة وقدرتها على محو اللغات والحضارات بأن عملوا على تهميش اللغة العربية، و لم يمكنوها بحكم استعمارهم وسلطانهم من أن تكون لغة الدول التي استعمروها بل ذهبوا أبعد من هذا بأن جعلوا لغاتهم هي لغة العلم والحضارة وكل حديث مبتكر لكي تحمي بذلك وتكتسب الانبهار من كل جديد ولكن قاعدة العقل والمنطق السليم : أن البقاء للأصلح . يؤيد هذه القاعدة قول الحق : (**فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال**).

ولعلنا من هنا ندرك لماذا أنزل القرآن بلسان عربي مبين وأعتمد العربية وأسسها ، وأنه لم يقم وزنا لقضايا اللون والجنس والقوم ، وحسبنا أن نقول بأن قضايا الجنس واللون والقوم هي أمور قسرية ليست من صنع الإنسان كما أنها ليست من اختياره ، أما أمر اللغة فهو أمر كسبي تعليمي وتعلمي بمقدور كل إنسان أن يحصله .

وقد لا تكون هذه القضية بحاجة إلى أي تدليل ، فاللغة في مراحلها البدائية الأولى وحتى صورها الذهنية المجردة المتقدمة هي كسبية تعليمية إضافة إلى أن غير العرب استطاعوا أن يتعلموا العربية ويبدعوا ويؤلفوا فيها ويبلغوا الذروة، فالكثير من محتويات المكتبة الإسلامية واللغوية منها بشكل خاص هي من إنتاج غير العرب الأمر

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

الذي يؤكد أن الخطاب القرآني للعالمين الذي جاء بالعربية استوعبه المخـــاطبون علـــى اختلاف لغاتهم و لم يشكل لهم أي عقبة .

بل العقبة حقا وضعها المسلمون بترجمته التي سلبته كل خصائصه الإعجازيـــة حيث نقلته لهم في ثوب محتقر من خلال لغاتهم فيدركونه محقـــرا مجزئـــا لأن التفكـــير والذوق والخيال يختلف من لغة إلى أخرى وقد لا نكون في حاجة إلى التـــأكيد بـــأن خصائص اللغة العربية ومميزاتها لا تدانيها أي لغة فيها، ومن هنا كان دورهـــا في بنـــاء الأمة وصناعة وجدانها وبناء ذاكرتها وتكوين هويتها وثقافتـــها ، وضمـــان تماســـكها وتواصل أجيالها وتوسيع دائرة تفاهمها وتفاعلها والمساهمة بتشكيل نمط تفكيرها والتأثـــير في مسالكها وأخلاقها فاللغة لا سيما العربية هي الترسانة الفكرية والثقافية الـــتي تبـــني الأمة وتحمي كيانها وتحافظ على شخصيتها بمقوماتها الفريدة .

ولأهمية اللغة العربية رتب الإسلام مسؤوليات كبرى على عملية اللغة حيـــث اعتبر الكلمة الطيبة صدقة ، كما اعتبرها كالشجرة الطيبة المثمرة الممتد أثرهـــا علـــى الزمن في أبعاده الثلاثة : الماضي ، والحاضر، والمستقبل ، فأصلها ثابت وفرعـــها ممتـــد تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وأن المسئولية يوم القيامة سوف تتركز علـــى القـــول وأثره في صناعة السلوك المستقيم أو المساهمة بالانحراف ، قال الله تعالى : (**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**) . يضاف إلى ذلك أن اللغة مرآة نفسية ، وأوضح نوافـــذ ووسائل الاستبطان النفسي الذي في ضوئه يمارس الإنسان أنشطته وعلاقاته مـــع بـــني جنسه في المجالات المتعددة فاللغة من الناحية الثقافية وعاء تفكير وأداة تعبير ، واللغة هي جوهر الثقافة ، وهي التنمية ، واللغة هي الوطن والأمة لذلك اعتبر كثير من العلمـــاء أن العروبة هي اللسان وأن الكلام بغيرها لغير حاجة يخشى أن يورث النفاق ، قال رســـول الله (ﷺ) : (من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية فإنه يـــورث النفـــاق)

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

(59) وكان شيخ الإسلام ابن تيميه يقول : (إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهلـــه ، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون) . وكان شيخ الإسلام ابن تيميه يـرى أن الطريق الحسن في ذلك هو (اعتياد الخطاب بالعربية حتى يتلقنها الصغار في المكـلتب وفي الدور فيظهر شعار الإسلام وأهله ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقـــه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف بخلاف من اعتاد لغة ثم أخذ أن ينتقل إلى أخـــرى فإنه يصعب عليه). ومن الجدير بالذكر والتنبيه تسجيل تلك الرؤية الدقيقة والمبكـــرة لأثر اللغة ودورها في التفكير وصياغة الشخصية عند الإمام بن تيميه رحمه الله حيـــث يقول : (إن اعتياد اللغة يؤثر في العقل ، والخلق ، والدين ، تأثيرا قويا بينا ويؤثر أيضـا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، ومشابهتهم تزيد العقـــل والديـــن والخلق) ثم يؤكد ابن تيميه على أن نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

لقد حرصنا في هذا البحث كل الحرص على أن نورد رؤية ابن تيميـــه هـــذه ونضعها حيال ما تقوم به الجهات المشبوهة من نسبة الجمود وغيره من صفات الذم التي أشرنا إليها لكي تفسح المجال للعامية والأجنبية واللهجات المحلية وكل ما هـــو غريـــب وهجين على حياة الأمة وامتدادها باسم التمدن والتقدم والمواكبة و (العولمة) ومـــا إلى ذلك من المصطلحات الخادعة علما بأن الإنسان إذا فقد ذاتيته لا يعـــد موجـــودا ولا مؤهلا للتعامل مع هذا جميعه .

وإذا نظرنا إلى الحواجز التي تقام لمحاصرة اللغة العربية من أبنائـــها وكيـــف أن مجامع اللغة أصبحت أشبه بخيام معزولة تعاني الكثير من غربة الزمان والقطيعة مع الواقـع الثقافي واللغوي أدركنا عظم البلاء الذي لحق بالعربية على يد أبنائها حتى المتحمســـين

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

لها ، لأن الحماسة هنا لا تفيد أكثر من شحذ الفاعلية التي تتضائل إذا لم تتوافر لها الاختصاصات المطلوبة والخبرات الضرورية .

وأكثر من ذلك فإن المناهضين للعربية والمتحكمين في العالم اليوم أصبحوا بما يطرحون من اهتمامات و أفكار قادرين على توجيه اللغة العربية نفسها وتحويل مصطلحاتها إلى الوجهة التي يريدونها ، وأصبح بإمكانهم تغييب بعض المفردات والمصطلحات واستدعاء أخرى لتملأ الذهنية الثقافية العربية الإسلامية ، ويمكن أن تتسرب إليها بعض المدلولات الإضافية التي تخدم ثقافتهم وتمهد لتشربها من خلال العربية ولولا القرآن الكريم لأصبحت العربية على يد أبنائها أثرا بعد عين .

والعجيب أن الكثير من مؤسسات العمل الإسلامي والدعوى بمختلف مواقعها لم تدرك العواقب البعيدة لعدم خدمة اللغة بالشكل المطلوب ، وتسهل تعلمها للناطقين بها ولغير الناطقين بها على السواء إن لم يكن هذا فرضا واجبا فليكن أسوة بانتشار تعلم اللغتين : الإنجليزية والفرنسية بأحدث الطرق والوسائل التعليمية والمراكز والبرامج التي تحقق الهدف .

ومجال بحثنا هذا محكوم بعنوانه لذا لا يسعنا ذلك لذكر اكثر مما قلنا عن الخصائص والمميزات للغة العربية ، بل يحكمنا موضوع البحث أن نعرج على الشطر الثاني فنقول : إختصت اللغة العربية من بينها من اللغات : أن حقيقتها تتمثل فيما يتمثل في العالمين العلوي والسفلي ، حيث تتمثل حقيقتها من أجرام وأعراض . فالجرم أو الجوهر : ما قام بنفسه وأخذ قدرا أو حيزا من الفراغ . والعرض : ما قام بغيره ، وهذا هو شأن اللغة العربية وحقيقتها حيث تتمثل حقيقتها من أجرام وهي حروفها الثمانية والعشرون حرفا التي إذا كتبت أو نطق بها فإنها تقوم بنفسها وتأخذ حيزا مما كتبت عليه أو تشغل موضعا من مواضع مخارجها في حالة النطق بها . أما أعراضها

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

تتمثل في حركاتها الأربعة وهي : الفتحة ، الضمة ، الكسرة ، و السكون ، وجميعها لا تقوم بنفسها بل بغيرها من الحروف التي هي أجرامها . ولما كان العرب في لغتهم لا يبدءون بساكن ولا يقفون على متحرك انقسمت هذه الأعراض إلى قسمين : حركة وسكون . فالحركة تكون بالفتحة وبالكسرة وبالضمة ، والسكون هو عدم الحركة ويتمثل في حالتين : أولاهما السكون الأصلي المعبر عنه برقم ال (5) في الحساب ، وثانيهما غير أصلي بل متولد من الحركات الثلاثة في حالة إشباعها في النطق أي مدها فالمد في هذه الحركات قد يكون طبيعيا وهو الذي يمد حركتين فحسب وغيره المد الجائز والواجب واللازم وهي التي يتأتى فيها إشباع الحركة بمدها فيتولد من كل حركة ما يناسبها ، فإذا مدت الفتحة في النطق تولد منه ألف أو ألف بعده همزة ، نحو : الفتى وجاءوا ، و إذا مدت الكسرة تولد منها ياء أو ياء بعدها همزة كيرمي وتفيء ، وإذا مدت الضمة تولد منه واو أو واو وبعده همزة مثل قاموا ، تبوء ، والألف والياء والواو في هذه الأمثلة تسمى حروف مد لمد الحركة قبلها والتي كان المد سببا في وجودها. فحروف المد هذه لا يتسنى عليها وجود الحركة لأنها وليدة الحركة ومتسببة عنها فعدم حركتها يعني سكونها , وسميت هذه الحركات أعراضا لعروضها وحدوثها، فالعرب الفصحاء الأصلاء كانوا لا يحتاجون في نطقهم بلغتهم ما يؤدي إلى ضبطها بل كانوا ينطقونها سليمة لأنها ملكة راسخة في نطقهم.

وقد تتبع علماء اللغة لما يعرب بالضمة فحصروه في الاسم المفرد ، وفي جمع التكسير وفي جمع المؤنث السالم ، والفعل المضارع المجرد من الناصب والجازم مثل : جاء محمد ، وهذا محمد ، قالت الأعراب ، قام الرجال ، جاءت الهندات ، هؤلاء الطالبات ، محمد يقوم بواجبه ووجدوا الفرع الذي ينوب عن الضمة من الحروف فيما يأتي الواو في الأسماء الستة أبوك وأخوك..الخ . وفي جمع المذكر السالم وما ألحق به نحو:

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

(وأولئك هم المفلحون) ، جاء المسلمون . والألف في المثنى : نحو : إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار) ، هذان عالمان تقيان ، والنون في الأفعال الخمسة وهي كل مضارع اتصلت به واو الجماعة أو ياء المخاطبة أو ألف الاثنين ، نحو : يفعلون ويفعلان وتفعلين ، وتتبعوا ما يعرب بالفتحة فوجدوه في الاسم المفرد وجمع التكسير والمضارع الذي دخل عليه ناصب نحو : رأيت محمدا ، ورأيت الرجال ، لن يجلس ، وتتبعوا ما ينوب عن الفتحة فوجدوه في المواضع التالية : الألف في الأسماء الستة والياء في جمع المذكر السالم والمثنى وما الحق بهما ، وحذف النون في الأفعال الخمسة في حالة دخول ناصب عليها مثل : رأيت أباك ، رأيت المسلمين ، رأيت الزائرين ، (**لن تنالوا البر حتى تنفقوا** ....).

أما ما تقدر فيه الحركات فهو ثلاثة أنواع :ما تقدر فيه الحركات الثلاثة وهو نوعان :أحدهما : ما أضيف إلى ياء المتكلم وذلك نحو (غلامي) و (غلماني) و (بناتي) ، قال تعالى حكاية عن نبي الله لوط عليه السلام : (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) (80) ، فهذه الأمثلة تعرب بحركات مقدرة على ما قبل ياء المتكلم . والذي منع من ظهور الحركة عليها التزامهم بأن يأتوا قبل الياء بحركة تجانسها وهي الكسرة فاستحال حينئذ المجيء بحركات الإعراب قبل الياء إذ أن المحل الواحد لا يقبل حركتين في الآن الواحد فنقول في إعرابها : منع من ظهور الحركة اشتغال المحل بحركة المناسبة أو المجانسة هذا إذا لم يكن الاسم مثنى ولا جمع مذكر سالم لأن الياء تثبت فيها جرا أو نصبا مدغمة في ياء المتكلم والألف تثبت في المثنى رفعا، وليس شيء من (الحرف) المدغم ولا من الألف قابلا للتحريك نحو : (غلامای) و (غلامي) و (مسلمي) وكذلك المنقوص لأن ياءه تدغم في ياء المتكلم ، فتكون كالمثنى ، والمجموع جرا ونصبا . وأيضا المقصور لأنه تثبت ألفه قبل الياء والألف لا تقبل الحركة فهو كالمثنى رفعا ، قال تعالى :

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

(يا بشرا هذا غلام) نوديت البشرى مضافة إلى ياء المتكلم وفي الألف فتحة مقـــدرة لأنه منادى مضاف ، وقرأ الكوفيون : (يا بشرى) بغير إضافة فالمقدر في الألف أمـــا ضمة كما في قولك (يا فتى) لمعين ، وأما فتحه على أنه نداء شائع مثل (**يا حســـرة على العباد**). إلا أنه لم ينون لكونه لا ينصرف لأجل ألف التأنيث .

وثانيهما : المقصور وهو الاسم المعرب الذي آخره ألف لازمة كالفتى والمرتضـــى تقول : جاء الفتى ورأيت الفتى ومررت بالفتى ، فتكون الألف ســـاكنة في الأحـــوال الثلاثة لذا تقدر فيها الحركات لتعذر حركتها .

ما تقدر فيه حركتان وهو نوعان :أحدهما : ما تقدر فيه الضمـــة والكســـرة فقط وتظهر فيه الفتحة وهو المنقوص وهو الاسم المعرب الذي آخره ياء لازمة قبلـــها كسرة مثل : (القاضي) و (الداعي) تقول : (جاء القـــاضي ومـــررت بالقـــاضي) بالسكون فيهما ، و (رأيت القاضي) بظهور الفتحة على الياء ، و إنما قدرت الضمـــة والكسرة للثقل ، و إنما ظهرت الفتحة لخفتها قال تعالى : (**فليدع ناديه**).

ثانيهما : ما تقدر فيه الضمة والفتحة وهو الفعل المعتل بالألف تقول : (هـــو يخشى) ومنه قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (85). ولن يخشـــى الله ، فإذا جاء الجزم ظهر بحذف الآخر فقلت : لم يخش الله . قال تعالى : (ولا تنس نصيبك من الدنيا) (86).

ما تقدر فيه حركة واحدة وهو قسمان :

1/ الفعل المعتل بالواو: (كيدعو) .

2/ الفعل المعتل بالياء : (كيرمي).

فتكون علامة رفعهما ضمة مقدرة منع من ظهورها الثقل في النطق ، وتظـــهر فيـــهما حركتان :

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

1/ الفتحة وذلك لخفتها نحو (**لن ندعو من دونه إلها**) و (**ولنحيي به بلـــدة ميتـــا ونسقيه**) و (**أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى**).

2/ الجزم بحذف الآخر نحو : (**ولا تمش في الأرض مرحا**) و (**ولا تقف ما ليس لك به علم**).

ومن مزايا وخصائص العربية : أنهم يشتقون الأفعال من أسماء الذوات ويقولون تحجر الطين واستونق الجمل ، واستتيست العنز واسترجلت المرأة ، فتراهم هنا اشـــتقوا الأفعال من الحجر ، والناقة ، والتيس ، والرجل مع أن أصلها أن تشـــتق مـــن أسمـــاء المعاني، كالضرب والعلم والفهم ، يقصدون بذلك : أن هذه الأشـــياء المذكـــورة في الأمثلة الأربعة تحول كل منها من حال إلى حال فتحول الطين إلى حجر ، والجمـــل إلى ناقة ، والتيس إلى عنز ، والمرأة إلى رجل.

ومن خواص العربية ما ذكره السيوطي في المزهر حيث قال : (ومن السنن التي لا توجد في غير لغة العرب : مخالفة ظاهر اللفظ لمعناه . كقولهم : قاتله الله ما أشـــجعه ، وثكلته أمه ، أي فقدته ، وتربت يمينك ، يقولون هذا ولا يريدون وقوعه وإنما يكـــون ذلك عند التعجب من فعل يفعله المخاطب ، وقد يكون فيه مدح له ومثل هذا وغـــيره لا يحصر ، ومن أراد الوقوف على هذا فعليه بكتابي الخصائص لابن جني والبيان والتبين للجاحظ ، والمقام لا يتسع له بل ما أوردناه في هذا الشأن يعتبر من قبيل التنبيه علـــى عظمة اللغة العربية التي وسعت كتاب الله لفظا وغاية ، وهو ما قال عنه منزله جل شأنه : (**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهـــم ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلـــل الله فما له من هاد**) . صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله النبي الكريم ، ونحن على ذلك مـــن الشاهدين ، وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

المراجع

- القرآن الكريم
- أبو الأسود الدؤلي- الواضع الأول لعلم النحو بأمر من أمير المؤمنين علـــيٍّ ابـــن أبي طالب كرّم الله وجهه ، انظر تاج العروس للزبيدي.
- إمام دار الهجرة: مالك بن أنس : كتاب الموطأ ، ط. دار إحياء الـــتراث العـــربي (بدون تاريخ).
- البخاري: محمد بن إسماعيل: الصحيح بشرح فتح البـــاري ط. دار الفكـــر للنشـــر والتوزيع.
- ابن تيميه: أحمد بن عبد الحليم : اقتضاء الصراط المستقيم: مخالفة أصحاب الجحيم.
- الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي : فقه اللغة والصراط المســـتقيم : دار الجيل- بيروت ط. أولى 1418هـــ -1998.
- الجاحظ : البيان والتبيين- الخانجي- القاهرة.
- الجرجاني : الشريف علي بن محمد الجرجاني- التعريفات : دار الكتـــب العلميـــة- بيروت- لبنان.
- ابن جني : أبو الفتح عثمان بن جني- الخصائص : تحقيق: محمد علي النجـــار. ط. القاهرة.
- الجوهري مختار الصحاح- دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان.

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

- الحاكم : أبو عبد الله محمد الحاكم : المستدرك ج 4 ص 98، حديث رقم 7001- ط. أولى. دار الكتب العلمية- بيروت، 1411هـ -1990م

- ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون المغربي- المقدمة- مطبعة : مصطفى محمد . القاهرة.

- الخليل بن أحمد : العين. ج 1 ص 60-61 ، سلسلة المعاجم والفهارس – دار مكتبة الهلال.

- الراغب : أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن – المطبعة الميمنية- القاهرة.

- الزبيدي : محمد المرتضى الزبيدي – تاج العروس من جواهر القاموس – مقدمته ص29. وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت. 1385هـ -1965م.

- الزبيدي : أبو بكر محمد بن الحسن وهو أندلسي : مختصر كتاب العين.

- الزجاج : ما ينصرف وما لا ينصرف - ط. أولى (1391هـ -1971م).

- الزمخشري : أساس البلاغة : ط. دار صادر - بيروت : المفصل في صنعة الاعراب دار ومكتبة الهلال.: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل في وجوه التأويل - ط. الحلبي - مصر.

- السكاكي : هو الإمام سراج الملة والدين - المفتاح ط. أولى بيروت – لبنان 1403هـ -1983م.

- ابن السكيت : أبو يوسف يعقوب بن اسحق - كتر الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ . ط. 1895، بيروت.

- سيبويه : الكتاب - تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون . ط. أولى - دار الجيل - بيروت.

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

- ابن سيدة : المحكم والمحيط الأعظم في اللغة .. تحقيق مصطفى السّقا ودكتور حسين نصار ط. أولى 1377هـ -1958م.
- السيوطي : المزهر- تحقيق: أحمد أبو الفضل وجاد المولى . ط. الحلبي: بغية الوعاة ط.عيسى الحلبي القاهرة.
- الشافعي : الرسالة : تحقيق : الأستاذ / أحمد شاكر. ط. القاهرة.
- الأصبهاني : علي بن الحسين بن.محمد القرشي الكاتب : الأغاني- مؤسسة عز الدين للطباعة.
- ابن عقيل : شرح على ألفية ابن مالك- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الفارسي : هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار انظر : ترجمته في كتابه المسائل البصريات. ط. 377هـ - القاهرة.
- ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم -أدب الكُتّاب- بيروت. ط. ثانية 1405هـ - 1985م.
- قدامة : أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي- نقد الشعر- مكتبة الكليات الأزهرية.
- المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد : الكامل- ط. نهضة مصر- القاهرة.
- ابن مالك : أبو عبد الله محمد جمال الدين بن مالك- الألفية شرح ابن عقيل. ط. دار الفكر للطباعة والنشر.
- مسلم : الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج- الصحيح بشرح النووي- ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- ابن منظور ك لسان العرب. ج ١ ص 588 مادة: عرب. ط.: دار صادر.

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم

- ابن هشام : الإمام أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف : أوضح المســـــالك إلى ألفية بن مالك . ط. أولى دار الكتب العلمية 1418 هـــ -1997م.

آداب. العدد 18 ديسمبر 2000. حقوق الطبع
محفوظة لكلية الآداب جامعة الخرطوم